الفصل الرابع

شمال افريقية فى العصر اليونانى الرومانى

« مصر والاغريق - شمال إفريقية فى العصر الرومانى - المدن الرمانية فى شمال إفريقية - الإنتاج الإقتصـــادى - المجتمع البربرى فى العصر الرمانى »

الفصل الرابع

شمال أفريقية فى العصر اليونانى الرومانى

مصر والاغريق :

كان من نتيجة نجاح القرطاجيين فى الحيلولة دون إستقرار العناصر اليونانية والإغريقية فى شمال إفريقية إلى الغرب من خليج سرت أن ركز الفينيقيون جل اهتمامهم لنشر مدنيتهم فقط فى برقة ومصر (شكل ٢٠) ومن ثم فقد تحولت مصر إلى أعظم نافذة ليطل منها النفوذ الأغريقى على داخل « القارة السوداء » ولاسيما بعد غزو الاسكندر الأكبر لهـــا فى ٣٣٢ ق.م . (١) وتأسيس مدينة الاسكندرية لتكون منارة للثقافة الأغريقية فى أراضى أغريقية ولتكون قصبة حكمهم عند مصب النيل الكانونى القديم .

وقد تشجعت فى أثناء الحكم الأغريقى عناصر يونانية عديدة إلى الدخـــول إلى مصر حيث جاء فى أعقابهم بعد ذلك كل شعوب البحر المتوسط التى تأثرت بالحضارة الأغريقية ، وكلهم قد دخلوا بعد ظهور المسيحية التى أخـــذت تنتشر لأولى مرة بين القبائل والشعوب دون تمييز عنصرى الأمر الذى شجع النزوح إلى أرض الوادى . وفى الحقيقة حتم موقع مصر الجغرافى عليها فى ذلك الوقت أن تتصل وتتأثر بالأغريق كما تأثرت فيما بعد بالعناصر العربية إذ أن الأغريق والعـــرب كانا العنصرين الأساسيين اللذين أثر تأثراً قويا فى الحضارة المصرية وتكوين الشعب المصرى وذلك بعد أن أضافا اليهم دماء جديدة عن طريق شمال

---

(1) Smailes, A. E., The geography of towns London 1953 P 13.

غرب مصر (١) .

شمال أفريقيه فى العصر الرومانى :

عقب إنتهاء التنافس أو الصراع بين قرطاجة واليونان حدث صراع مماثل قرطاجة وروما انتهى باحتلال الرومان لشمال إفريقية . وكان مصدر الصراع الأخير هو تصادم القوتين الرئيسيتين فى منطقة غربى البحر المتوسط وهما القوة الرومانية والقوة القرطاجية حول السيادة السياسية والاقتصادية فى المنطقة. فعلى الرغم من محاولة القرطاجيين الوقوف فى طريق وصول الرومان إلى شمال إفريقية إلا أنهم نجحوا فى منتصف الألف الثالثة ق.م . فى الرسو فى أسبس Aspis شرقى عنابة . ومن هناك أتجهوا نحو تونس وأحتلوها غير أن هذا الوضع لم يدم طويلا إذ تمكن الفينيقيون بعد بضعة أعوام من إزاحتهم من شمال إفريقية إلا أنه بسبب هزيمة القرطاجيين فى الحرب اليونانية الأولى فى عام ٢٤١ ق.م. وإنتصار الرومان فيها وفرض سيادتهم على جزيرة صقلية (٢) مكنهم بعد ذلك من العوده ثانية إلى شمال إفريقية بعد هزيمة الجيش القرطاجى على يد سكيبو الإغريقى Sclpio Africanus فى الحرب البونية فى موقعة زاما zama فى عام ٢٠٢ ق.م (٣) . هذا وقد انتهت السيادة للرومان فى المغرب الكبير بعد استيلائهم

---

(١) من أم الكتب التى تناولت الوضع الحضارى والاجتماعى من مصر فى ذلك الوقت كتاب

Mahoffy ρ P. A. history of Egypt, I udon, 1898 Aol. IΛ.

(٢) السبب فى هزيمة القرطاجيين هو عدم مقدرتهم على الاندماج الكلى مع البربرى أثناء العصر القرطاجى بحيث تجعل منه شعبا قرطاجيا واحداً فى ذلك الوقت ذلك إلى جانب وجود النزاع التقليدى بين طبقات المجتمع حول الثروة فبينما يتجه البعض إلى الثروة المعتمدة على انتاج الأرض الزراعى يتجه البعض الآخر إلى المكاسب الآتية من التجارة المعتمدة على الأسواق التى يلزمها الابحار الدائم والاستيراد والتصدير .

(١) تقع بالقرب من ناراجرا Naraggara و ساقية سيدى يوسف

على مدينة قرطاجة وتدميرة فى عام ١٤٦ ن . م ، وذلك بعد بسط سيادة القوة الرومانية عل كافه أقاليم حوض البحر المتوسط الشرقيه والغربيه . وقد كان هناك فى شمال إفريقية منطقتان لها أهميه خاصه للرومان الاولى مصر والثانيه ولايه إفريقيه أو « أقاليم إفريقيه » التى ضمت تونس الحاليه والساحل الموازى لطرابلس ونوميديا . وفى المنطقه الثانيه نشأ ما يزيد عل ٥٠ مدينه رومانيه . أما فى مصر فيبدو أن تأثير الحكم الرومانى كان ضعيفا لان الرومان لم يستطيعوا أن يؤقلموا أنفسهم بسرعه بظروب الكيان المصرى فظلوا أجانب بها . وتحولت مصر عن طريق السخرة والاستغلال الهدام لمواردها إلى منطقه متدهوره بعد أن استنزفت مواردها الزراعيه التى كانت سببا فى أنتعاشها دائما والتى صنع الرومان الكثير من أجل أحيائها من قبل (١) .

المدن الرومانية فى شمال إفريقية :

وفى بدايه الحكم الرومانى قسم المغرب إلى قسيمتين رئيسيتين وهما :

أولا : الولايات الإفريقية وكانت تضم منطقه العاصمة القرطاجيه بصفة خاصه ، وقد تحكم فيها الرومان بصفه كاملة .

ثانيا : ممالك بربرية تنضم بدورها إلى ثلاث وحدات سياسيه وهى :

أ — نوميديا وعاصمتها قرطه قسنطينه .

ب — موريتانيا القيصريه وتقع فى المنطقه المغربيه من الجزائر وعاصمتها شرشال .

---

(١) رولاند أوليفر وجون فيج ، موجز تاريخ افريقية ، ترجمة دولت صادق ـ سلسلة دراسات افريقية ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ ، ص ٦٣ .

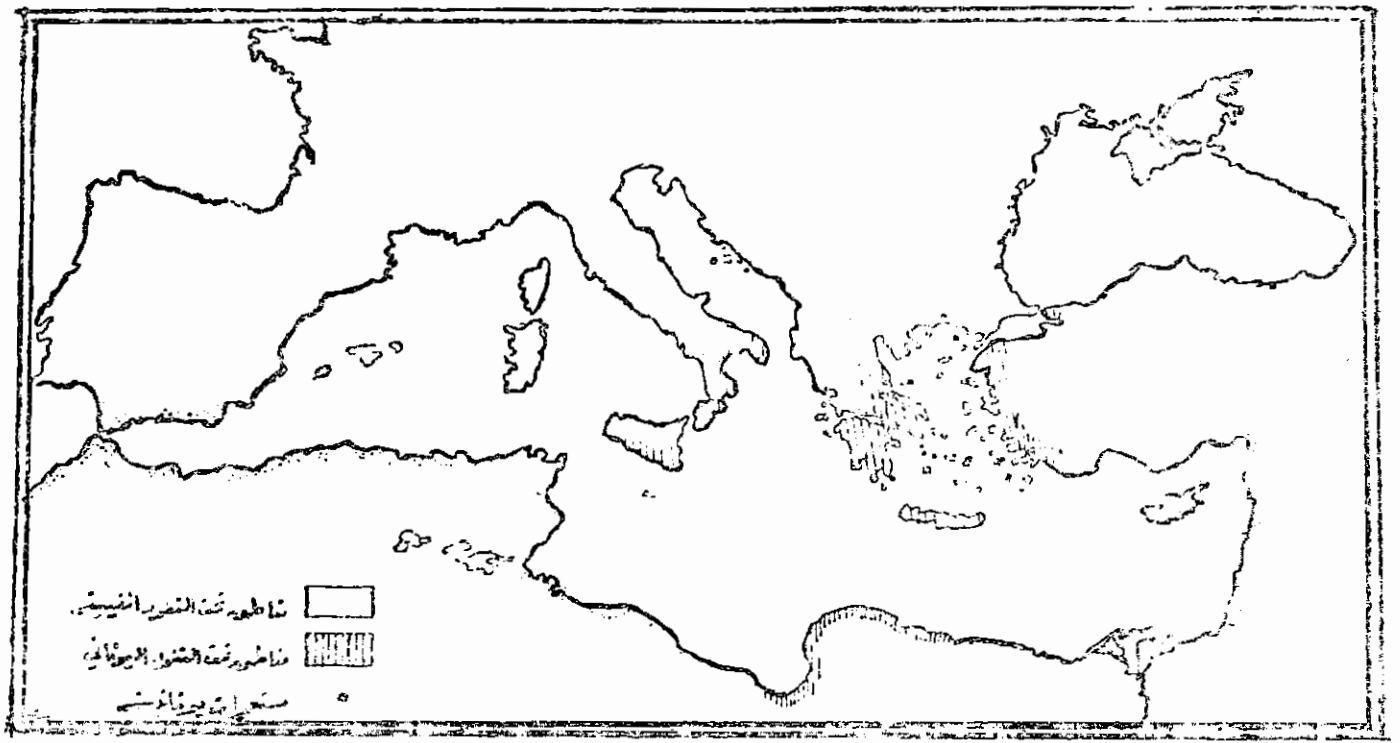

شكل ٢٠ – اليونانيون فى شمال افريقية

جـ — موريتانيا الطنجية وعاصمتها طنجة .

وقد أتخذ الرومان فى سبيل بسط نفوذهم على شمال افريقية سياسة إنشاء المعسكرات الدائمة المجهزة بكافة الاحتياجات الرئيسية لجنود الاحتلال الرومانى وكان المعسكر بمثابة مدينة عسكرية تتضمن المخـــازن والاسطبلات وساحات التدريب العسكرى وقد تطلب تشيد هذه المدن الحربية مجهودات ضخمة فى عملية البناء وتزويد المدينة بالمياه والغذاء . الأمـــر الذى أدى فى بعض الاحيان إلى استيلاء الجنود على الاراضى المجاورة وأستغلالها لصالحهم .

وأرتبط تشيد هذه المدن بانشاء الطرق اللازمة للتحركات العسكرية والمدنية ومن ثم فقد خلف الرومان شبكة طويلة من الطرق التى تعتبر من أهم مخلفاتهم فى شمالى إفريقية . ومن أشهر تلك الطرق الطريق الساحلى الممتد من مدينتى فرطاجة ولبدة فى الشرق الى طنجة فى الغرب ، ومن طنجه الى شالة ، والطرق الداخلية الاخـــرى التى تربط الاقليم الساحـــلى بتبسه وتمجاد وجميلة وليلى أو قصر فرعون (١) .

على أى حال فمن أبرز الظواهر الخاصة بالعصر الرومانى فى شمال افريقية هو قيام الرومان بانشاء عـدد من المدن الرومانية الساحلية والداخلية فى كافة أنحـاء المغرب . وقد أختار الرومان فى أغلب الاحيان نفس المواقـع التى سبق أن أختارها الفنيقيون والقرطاجيون لإقامة مدنهم . وقد انتشرت هـــذه المدن الرومانية فى الولايات الأربع الرئيسية فى المغرب وهى ولاية موريتانيا الطنجية وموريتانيا القيصرية ، ونوميديا وولاية افريقيه (شكل ١٨) . وقد أمتدت

---

(١) رشيد الناضورى — ص ٣٢٩

الولاية الاخيرة فى جانبها الشرقى حتى مدينة طرابلس وفى جانبها الغربى حتى مدينة عنابة، بينما تركزت نوميديا بصفة خاصة فى شرق الجزائر . أما موريتانيا القيصرية والطنجية فتمثل مناطق غربى الجزائر والمغرب الاقصى ويفصل بينها نهر مولوية . وقد أتخذت مدينة شرشال عاصمه لموريتانيا القيصريه فى حين أتخذت طنجه عاصمة لموريتانيا الطنجيه .

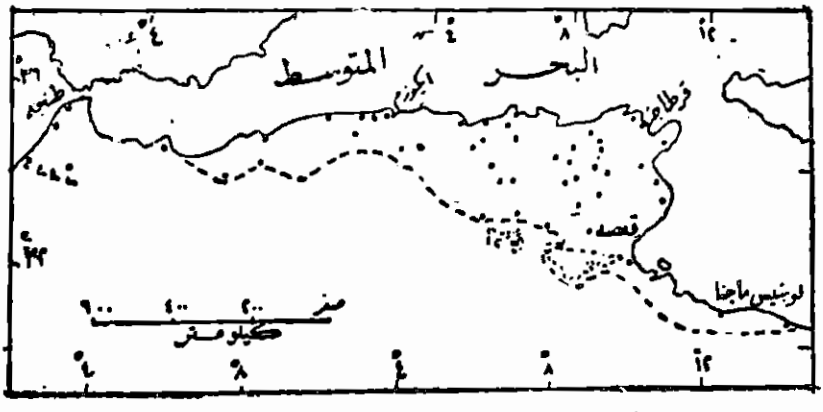

شكل (٢٢) المدن الرومانية فى المغرب العربى

وقد أنشأ الرومان فى الجزائر مدينه قيصرية caesarea التى تحمل اليوم اسم شرشال ، كما أستطاع الرومان أن يتوغلوا فى الاقاليم الصحراويه ، ذلك إلى جانب أنهم تمكنوا فى العصر الذهبى لروما pax Romana من جعل أقليم نوميديا مركزاً لزراعة القمح والحبوب ومصدراً هاما لروما . وبالاضافه الى ذلك فان وجود ما يقرب من ٢٠ أسقفيه فى نوميديا فى منتصف القرن ٣ يعطى فكره واضحه عن تغلغل المسيحيه الى هذا الجزء من العالم (١) .

أما فى مصر فقد أستغل البطالمه موارد البلاد المحليه أستغلالا اقتصاديا كاملا

(1) Bardour, oq. cit. b. 207.

كما أستغلوا أيضا موقعها الجغرافى ولا سيما بعد أن تم نشـــر الحضاره والمدينه الاغريقية فى حوض البحر المتوسط (١) وقد أقيمت فى هذا العصر عدة موانى على ساحل البحر الأحمر مثل ميناء ميس هورمس والميناء البيضاء وميناء برنس كما أصبح ميناء الاسكندرية فى ذلك الوقت أهم مـــوانى البحر المتوسط ذلك بالاضافة إلى أن لبطالمة كانوا يسيطرون على طرق القوافل فى بترا إلى جانب العقبة لتى أعتبرت نهاية طـــرق القوافل القادمة من سوريا ، وفى الحقيقة يعد البطالمة من أول الجماعات الحاكمة التى لفت الأنظار إلى أهمية موقع مصر الجغرافى من الناحية التجارية بين الشرق والغرب .

وقد تضمنت المدن الرومانية فى تخطيطها كافة العناصر الرئيسية الحكومية والخاصة إذا احتوت على متطلبات الحياة العامة فى المدن من حوانيت وأسواق ومنازل ومعاصر للزيوت والمطاحن والساحات والمسارح النصف دائرية والملاعب الدائرية والاسطبلات والحمامات والمكتبات وغيرها من المبانى العامة .

ولقد نشطت هذه المدن الرومانية بعد إنشائها نشاطاً كبيراً وأعطت للبلدان المغربية صفة الحضرية أكثر من الصفة البدوية ، وأجتذبت هـذه المدن الكبير من البربر اليها وبصفة خاصة أولئك الذين كانوا يعملون فى المزارع الرومانيه التى كان يمتلكها أثرياء الرومان .

الانتاج الاقتصادى

ولقد اتجهت السياسة الرومانيـة فى شمال إفريقيـة إلى استغلال أقاليمهـا أستغلالا شاملا فى المجـــال الاقتصادى إذ اعتبروا الجزء ولا سيما مصر مخزنا

---

(١) للدراسة التفصيلية أنظر :

J. G. Milne . Hostory of Egypt under a Roman Rule, London 1868, Vol. V.

كبيراً للحبوب التى فى حاجه اليها الرومان .. لذلك فقد أتجهوا لاعطاء الزراعة عناية خاصة وعملوا على تطوير الزراعه فى شمال إفريقية لتحقيق غايتهم الاقتصادية وقد تطلبت هذه التوسعات الزراعية إقامة المشروعات المائية اللازمة لتحقيق هذا الغرض ومن ثم أهتم الرومان فى شمال إفريقية بعمل السدود لتخزين مياه الرى هذا بالاضافه إلى حفر الآبار وبناء مجارى المياه الرئيسية والثانوية وكذلك جمع مياه الأمطار وتخزينها ، وحفر القنوات لرى مختلف الزراعات (١) .

واهتم الرومان أيضا بعمليات تصنيع بعض المحاصيل الزراعية وبصفه خاصة الكروم والزيتون . وكان دور الرومان فى هـــذا المجال على نطاق أوسع من القرطاجيين لأن المدن الرومانية كانت تعتمد على اقتصاد ذاتى فلكل مدينة مطاحنها ومعاصرها الخاصة بها مما أدى إلى إنتشار الزراعة والصناعة وبالتـــالى التجارة .

أما عن التجاره فكانت أهم سلعها الحبوب والزيوت والأخشاب إلى جانب بعض العطور وغيرها من السلع التى وجدت روجانى لنشاط التجارى مع شعوب البحر المتوسط وعلى رأسها الدولة الرومانيه . هـذا وقد اتجهت التجاره فى هذه الفترة إلى الأقاليم الجنوبيه وإلى منطقه النيجر وساحل إفريقيه الغربى كما اتجهت أيضا عن طريق النيل إلى ساحل البحر الأحمر .

المجتمع البربرى فى العصر الرومانى :

اتجه الرومان إلى تقوية كيانهم السياسى والحربى فى شمال إفريقيه باحتلال بلاد المغرب كليه وطبع المنطقه بالطابع الرومانى استكمالا لتحقيق تحويل منطقه

---

(1) Houston, J. M., The Western Mediterranean World, London, 1964, P 106

البحر الابيض المتوسط بأسرها الى بحيرة رومانيه تحت سيـــادة مدينة روما العاصمه .

وقد حاول البربر فى ذلك الوقت جمع شمل القبائل غير أن محاولتهم باءت بالفشل اذ أن البربر يضمون عناصر بربرية أستقرت فى المدن وأخذت بحياه المجتمعات المعاصره سواء كانت قرطاجية الأصل أو رومانية ، وأخرى لا تزال فى طورها القبلى على حافة الصحراء تحاول الاقتراب من المجتمعات الحضرية ولكنها لم تألف بعد حياه المدن والخضوع لسياسى لدولة بربرية متحده .

وهنا يجب الاشاره الى أن الظروف الجغرافية كانت مسؤلة إلى حد كبير عن هذا الوضع الانعزالى إذ أن طبيعة البلاد ليست من السهول والتجانس بحيث تكفل تحقيق مثل هذه الوحده حينئذ إذ أن كثره المناطق الجبلية وعدم توفر الطرق الموصلة بينها باعدت بين المجتمعات البشرية المختلفة . لذلك فقد أعطى الرومان أهمية خاصة للمواصلات لكى تحقق التحكم الرومانى فى كافة المناطق التى تقع تحت سيطرتها .

هذا وقد وجد الرومان صعوبات شتى فى بسط نفوذهم عـــلى شمال شرق إفريقية إذ لم تكن تلك المنطقة تتقبل بسهولة سياده الرومان عليها بقوه السلاح ولا سيما وأنها تحمل فى طياتها تراثاً حضاريا هائلا .

وقد بدأت قوى الرومان فى شمال إفريقية تنهار فى خلال القرنين الرابع والخامس الميلادى وساعد على سرعة هذا الانهيار دخول الجمل من آسيا إلى شمال إفريقية (١) .

---

(١) رولاند أوليفر — ص ٦٥

فى المناطق الصحراوية المتاخمة لتونس وطرابلس ظهرت عناصر بدوية جديدة ممثلة فى قبائل زناته التى قدمت من مناطق أستبس الصحراء الكبرى على ظهور الجمال لتهاجم وتسلب وتنهب الجماعات المستقره فى الاقاليم الرومانية الامر الذى أدى إلى ضعف وأضعاف سلطة الرومان على هذه المناطق ولا سيما بعد أن بدأت عناصر البدو الرعاه فى التوسع فى الانتشار على حساب المدنيات الزراعية المستقره . وقد عجلت عمليات السلب هذه بغزو الاسبان لشمال إفريقية على يدى قبائل الواندال فى القرن الخامس ، وتبع ذلك اعاده اخضاع هذه المناطق بواسطة العناصر البيزنطية فى خلال القرن السادس .

ومع أنحلال الامبراطورية الرومانيه بدأت النهاية لتاريخ شمال إفريقية الذى أرتبط بالبحر المتوسط . هذا ويجب ملاحظة أن الاطراف الشمالية من الصحراء الكبرى قد دخلت — إلى حد ما — ابان العصر القرطاجى الرومانى ضمن مناطق نشاطهم التجارى والدليل على ذلك ازدهار بعض المدن التى كانت تقع على طرق التجاره التى كانت تعبر الصحراء الكبرى مثل مدينة لبتس ماجنا **Leptis Magna** ومدينة ليكوس القرطاجية التى تقع على المحيط الاطلسى عند نهاية طرق التجاره عبر صحراء موريتانيا (١) .

وقد كانت العناصر البربرية تمثل همزه الوسط عبر الصحراء بين أقاليم البحر المتوسط شمالا والاقاليم السودانية جنوباً ، فكانت تعبر الصحراء فى مواسم معينة ليتم هذا التبادل ، فكانت تحمل الى الشمال الذهب والدقيق والعاج وريش النعام والجلود فى حين تعود الى الجنوب بمنتجات البحر المتوسط والملح .

والخلاصة أنه كان من نتيجة انتشار مدينة البحر المتوسط فى شمال افريقية

---

(١) المرجع السابق ص ٦٧

أن قويت الفروق بين جماعات البربر التى أستقرت فى سهول وأودية شمال غرب إفريقية ، وجماعات البربر الرعاة فى نطاق السافانا والصحراء . وأزدادت قيمة هذه الفوارق بدخول الجمل و كذلك بدخول الإسلام بعد ذلك . ومع بداية العصر الإسلامى أصبح بربر الصحراء يتمثلون فى جماعات الطوارق الذين لاتزال ورابطهم القبلية مع البربر المستقرين قائمة (١) .

---

(1) Stamp. L. D, Africa, London 1964 P.232 - 233.

وأيضا رولاند أوليفر ص ٦٩ .